الباب الثامن

في ذكر السياسة، وتحصين السيادة

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «من استُرعِي رعيةً لم يحطّها بالنصيحة فقد حرَّم الله عليه ريحَ الجنةِ، وريحُها يوجد من مسيرة مئة عام».

قال: وكان (الإسكندر) قَسَمَ نهاره أربعةَ أقسامٍ؛ القِسمُ الأول للفقهاءِ والحكام، والقسم الثاني لأصحابِ الحربِ والحيلِ والسلاحِ، والقسم الثالث لأصحابِ الحكمةِ، وسائر أصنافها، والرابع لأصحابِ الزهدِ والعبادةِ والفقهِ والقراءة.

وقال الوليدُ بنُ عبدِالملكِ لأبيه يا أبتِ: ما أفضلُ السياسةِ؟ قال: هيبةُ الخاصة مع صدقِ مَوَدَّتها، وانقيادُ قلوبِ العامةِ بالإنصافِ لها، واحتمال هفواتِ الصنائعِ، فإن شُكرَها أقربُ الأيادي إلينا.

وقال (أنوشروان): الناسُ ثلاثُ طبقاتٍ تسوسهم بثلاثِ سياساتٍ؛ طبقةٌ من خاصةِ الأبرارِ، تسوسها بالعطف واللين والإحسان، وطبقةٌ من خاصة الأشرارِ تسوسها بالغلظةِ والشدةِ والعنفِ، وطبقةٌ هي العامةُ تسوسها بالشدّة واللين لئلا تُخرجهم الشدة، ولا يُبطرهم اللين.

---

(1) التحريم: الآية (6).

وقال (أَرْدَشير)؟ لابْنه: يا بني إنَّ المُلْك والدينَ أخوان، لا غِنى بأحدهما عن صاحِبه، ولا قِوام له إلا بهما الدينُ أسٌّ، والملك حارسٌ، فمَنْ لم يكنْ له أسٌّ فمهدومٌ، ومنْ لم يكن له حارسٌ فضائعٌ، فاجعلْ مرتبتَك يا بنيَّ مع أهلِ المراتبِ، وعطيتَك لأهلِ الجهادِ، وبِشْرَكَ لأهلِ الدينِ، وبِرَّك لمن يُغْنيه ما أغناك من أهل العقل.

وقال يزيدُ بنُ حبيب: سألَ بعضُ ملوكِ الفرسِ (موبذان): أي شيءٍ يعزُّ به السلطان؟ قال: تودُّدُ الخاصة، والعدل على العامة، قال: فما صلاح الملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منهم على غير مشقة، وأداؤه إليهم عند أوانه، وأمن السبيل، وإنصاف المظلوم من الظالم.

قال: وسئل بعض الحكماء: أي الملوك أحزم؟ قال مَن ملَكَ جِدّه هزلَه، وقَهَر لُبُّه هواه، وأعرب عن ضميره فعله، ولم يختدعه رضاه عن خطئه، ولا غضَبُه عن كيده.

قال: وكتبَ بعضُ الحكماءِ إلى (الإسكندر): امْلُكِ الرعيةَ بالإحسانِ إليها تظفرْ بالمحبةِ منها، فإنَّ طلبَكَ مُلْكَكَ بإحسانكَ هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك.

وقال عبد الملك بن مروان، حين وجَّهَ أخاه عبد العزيز إلى مصر: اعرف كاتبك وحاجبك وجليسك، فإن الغائبَ يخبره عنك كاتبُك، والمتوسم لك يخبره عنك حاجبُك، والداخل عليك يخبره جليسك.

وقال عباس بن محمد للرشيد: يا أميرَ المؤمنين، إنما هي دراهمُك وسيفُك، فازْرع بهذا مَنْ شَكرَكَ، واحصدْ بهذا مَنْ كفَرك.

قال حسينٌ: إن البذلَ رضيعُ العدلِ، قال: فكيف الشفاعةُ عنده؟ قال: ليس فيها مطمع.

قال حسين: وقيل لعبد الله بن سالم: إن فلاناً غيّرته الولاية، فقال: إذا ولي الرجل ولايةً هي أكبرُ منه تَغَيَّر لها، وإن وَلي ولايةً يرى أنه أكبرُ منها لم يتغيرْ.

الحكاية

كتبَ الوليدُ إلى الحجاجِ بنِ يوسفٍ يأمرُه أن يكتبَ إليه سيرَته، فكتب إليه: إني أيقظتُ رَأيي وأَنَمتُ هوايَ، فأدخلتُ السيدَ المطاعَ في قومه، ووليتُ الحربَ الحازِمَ في أمره، وقلَّدتُ الخراجَ الموفَّرَ لأمانته، وقسَّمْت لكل حظٍ من نفسهِ قَسْماً يعطيه حظاً من نظري، ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى النطق المسيء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظِّه من الثواب، وأنشد أبو العتاهية في الرشيد:

أميرَ المؤمنين ابنُكَ خيرُ ابنٍ
عليه مِنَ التقَى فيه لباسُ
يُسَاسُ من السماءِ بكلِّ بِرٍّ
فأنتَ به تَسُوسُ كما تُساسُ
كأن الحُسْن رَكَّبَ فيه روحاً
له جسدٌ وأنتَ عليه راسُ